

الغدير الصغير^١

جَلَسَ الرَّاعِي الْمَسْكِينُ عِنْدَ الْغَدِيرِ الصَّغِيرِ يَنْدُبُ حَظَّهُ الْعَاثِرَ؛ لِأَنَّ خَرُوفًا مِنْ خِرَافِهِ غَرِقَ فِي النَّهْرِ الْمَجَاوِرِ.

وَحَزَنَ الْغَدِيرُ لِحُزْنِ الرَّاعِي، وَأَخَذَ يُوَاسِيهِ وَيُعَزِّيهِ، مُوجِّهًا إِلَى النَّهْرِ عِتَابًا مَرًّا عَلَى أَثَرَتِهِ^٢ وَقَسَوْتِهِ، فَقَالَ: تَبًّا لَكَ أَيُّهَا الْغَدَارُ الشَّرُّ، مَا أَقْسَى قَلْبَكَ! أَلَيْسَ لِحَشَعِكَ حَدٌّ، أَوْ لِحَطْمِكَ نَهَائِيَّةٌ؟ فَلَوْ اسْتَطَاعَ النَّاسُ أَنْ يَسْتَشْفُوا مَا تَحْتَ مِيَاهِكَ الْعَمِيقَةِ الْعَكِرَةِ، كَمَا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَةِ مَا فِي مِيَاهِي الْقَلِيلَةِ الصَّافِيَةِ، لَأَقْشَعَرَّتْ أَبْدَانُهُمْ أَشْمِئزًا مِنْ هَوْلِ مَا يَرُونَ فِي جَوْفِكَ الْقَدْرِ مِنْ فَضَلَاتِ الضَّحَايَا الَّتِي تَنْتَلِعُهَا مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ! وَكُنْتَ تَهْرُبُ خَجَلًا؛ لِتَحْتَفِيَ عَنِ الْأَنْظَارِ بِالْغُورِ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ، أَوْ الْإِنْحِدَارِ إِلَى هُوَّةِ دَامِسَةِ الظَّلَامِ.

أَمَّا أَنَا، فَلَوْ أَسْعَدَنِي الْحَظُّ بِمَا حَبَاكَ^٣ مِنْ قُوَّةِ بَاهِرَةٍ،^٤ وَمِيَاهِ زَاخِرَةٍ؛ لَكُنْتُ أَصْرِفُهَا فِي سُبُلٍ غَيْرِ سُبُلِكَ، فَمَا كُنْتُ أُؤْذِي حَتَّى الدَّجَاجَةَ الصَّغِيرَةَ، وَكُنْتُ أَنْسَابُ بِكُلِّ لُطْفٍ وَدِعَةٍ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَالْحَدَائِقِ حَامِلًا الْهِنَاءِ وَالرِّخَاءِ وَالْبُهْجَةَ لَهَا وَلِكُلِّ الْوُودِيَانِ وَالْحُقُولِ وَالْمُرُوجِ الَّتِي يُسْعِدُهَا حَظُّهَا بِمُرُورِي بِهَا فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، دُونَ أَنْ أَسْلُبَهَا

^١ الغدير: قطعة من الماء يغادرها السيل.

^٢ الأثرة: حُبُّ النفس المفرط.

^٣ أعطى بلا جزاء.

^٤ غالبية.

وَرَقَّةٌ مِنْ أَصْغَرِ حَشَائِشِهَا، أَوْ زَهْرَةٌ مِنْ أَحْقَرِ أَعْشَابِهَا — قَالَ ذَلِكَ مُخْلِصًا، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِصِدْقِ مَا قَالَ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْوَقْتِ، اكْفَهَرَ الْجَوُّ، وَأَظْلَمَتِ السَّمَاءُ بِالْمُعْصِرَاتِ ° الْمُطَبِّقَاتِ، ٦ وَدَوَى الرَّعْدُ الْقَاصِيفُ، وَلَمَعَ الْبَرْقُ الْخَاطِطُ، ثُمَّ هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ الْغَزِيرَةُ، وَأُتْرَعَتِ مَسَائِلُ الْمِيَاهِ، فَارْتَفَعَ مَاءُ الْغَدِيرِ، وَصَارَ سَيْلًا عَرْمَرَمًا، ٧ أَشَدَّ طُغْيَانًا مِنَ النَّهْرِ، فَانْطَلَقَ يُرْغِي وَيُزِيدُ وَيُهِدِرُ، جَارِفًا كُلَّ مَا اعْتَرَضَ سَبِيلَهُ مِنَ الْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ، مُلْتَهُمَا كُلَّ مَا أَدْرَكَهُ مِنْ حَيَوَانَ وَإِنْسَانٍ، حَتَّى إِنَّ صَدِيقَهُ الرَّاعِي الْمُسْكِينَ لَمْ يَنْجُ مِنْ شَرِّهِ، هُوَ وَكُوْحُهُ، وَمَا بَقِيَ لَهُ مِنْ قَطِيعِهِ ...

° الغيوم تأتي بالأمطار.

٦ تَسُدُّ الْأَفَاقَ كُلَّهَا.

٧ شَدِيدًا.